إشكالات المسكوت عنه في الخطاب الأدبي، رواية "أنا يوسف" أنموذجا

خالد بن سليمان الكندي[1]

تاريخ تسلم البحث: ١٦/٨/٢٠٢٠م تاريخ قبوله للنشر: ١٤/٢/٢٠٢١م

ملخص

يواجه مصطلح المسكوت عنه إشكالات في مفهومه؛ إذ لا يزال الجدل في مفهومه قائماً بين الفلاسفة واللسانيين والسيميائيين والتأويليين وعلماء الإدراك والأصوليين في القديم والحديث، ويقدّم هذا البحث مقاربات متعددة من علوم ونظريات متعددة اجْتَهَدَتْ في محاولة تحديد مفهوم المسكوت عنه مستعملة أدوات تحليل مختلفة، ويخلص البحث إلى اختيار سمات تميز المسكوت عنه مطبِّقًا هذه السمات على أمثلة من المسكوت عنه في رواية "أنا يوسف" لأيمن العتوم، وتأتي أهمية التطبيق في إثبات صلاحية هذه السمات وقدرتها على استخراج المسكوت عنه في الخطاب، وبيان التفاصيل والجوانب التي نخال أنها غابت عن مفهوم المسكوت في المقاربات القديمة والحديثة.

الكلمات الدالة: المسكوت عنه، رواية أنا يوسف، الدراسات القديمة، الدراسات الحديثة.

المقدمة.

الخطاب discourse نسق من الملفوظات يمكن أن يكون كلمة أو تركيباً أو نصّاً، يسبقه تفكير ومرجعية معرفية، فينتقل من النفس إلى الخارج شفويّاً أو مكتوباً، يكون فاعلاً لأن غايته التواصل والتأثير، ويكون مدلوله من مجموع معاني كلماته وقواعد جمله ومقاصد المتحاورين والظروف السياقية المحيطة بإلقائه، ويقبل الدلالة المفتوحة semiosis، وتحيط به عناصر التلفظ Enunciation الأخرى: المتخاطبين والزمان والمكان وموضوع الخطاب والثقافة الموسوعية بين المتخاطبين (يوسف، ٢٠١٨).

أما المصطلح الإنجليزي implicit أو the unsaid (ويرادفهما في الفرنسية implicite، le non

(١) جامعة السلطان قابوس، عُمان.

dit) فنجدهما في المراجع العربية الأصيلة والمترجمة– مُتَرْجَمَين إلى المضمر كما في معجم السرديات حيث قسّم المضمر implicit إلى مُقْتَضَى ومُهْمَت أي مَخْفِيّ (القاضي وآخرون، ٢٠١٠)، ونجد سعيد علوش في ترجمته لكتاب فرانسواز أرمينكو "المقاربة التداولية" يستعمل المسكوت عنه (أرمينكو، ١٩٨٦)، أما في ترجمة حمزة المزيني لكتاب راي جاكندوف "الدليل الميسر إلى الفكر والمعنى" فيتحدث عن أربعة معان لا تدل عليها كلمات الجمل، وهي الاستلزام والإضمار وتحويل المرجع والقسر الجِهوِيّ (جاكندوف، ٢٠١٩).

إن علماء المصطلح لا يَعُدُّون أي لفظٍ مصطلحاً إلا إذا تمتع بالتردد في الكتاب المختص الواحد، وبالشيوع عند سائر المختصين في المجال نفسه، وكان له مفهوم يتعارف أغلبهم عليه (ماري،٢٠٠٤)، وقد حقق مصطلح "المسكوت عنه" هذه المعايير حتى إنه أقيمت باسمه ندوة علمية في جامعة صفاقس عام ٢٠٠٩ وكُتِب فيها مرادفه بالإنجليزية the unsaid ومرادفه بالفرنسية le non dit، ولكن الإشكال أن هناك مصطلحات أخرى شائعة تلتبس بمفهومه أشهرها المضمر أو الضمني implicit والمقتضى أو الاستلزام presupposes، ومع ذلك فضّلنا أن نُعَنْوِنَ بحثنا بالمسكوت عنه لسببين:

١) مصطلح "المسكوت عنه" راسخ في تراثنا العربي في أصول الفقه، وله مفهوم واضح وأنواع حدّدها الأصوليون وضربوا لها أمثلة، وسنتناوله في المبحث الثاني من بحثنا هذا.

٢) إن لفظ "المسكوت عنه" أقرب إلى المفهوم التي اخترناها له بعد نقاش في الاصطلاح والمفهوم سنوضحه في هذا البحث.

ولكن لأن اللبس حاصل في مفهوم المسكوت عنه، وتتنازع مفهومَه مصطلحاتٌ أخرى– أحببنا أن نسهم بهذا البحث في محاولة تحويط مفهوم المسكوت عنه بسياج آمن من اللبس عبر تفصيل سماته وتطبيقها على رواية.

والمسكوت عنه أو "المضمر مفهوم من مفاهيم تحليل الخطاب، مستخدم في المقاربات التداولية للنص السردي، وخاصة عند دراسة الحوار" (القاضي، ٢٠١٠: ص٣٩٥)، وإذا كان الخطاب مفهوماً تتنازعته الفلسفة والبنيوية ولسانيات التلفظ والهيرمينيوطيقا والسيميائية فإن المسكوت عنه هو كذلك مفهوم بيني، فلا غرو أن نناقش مفهومه من وجهة نظر مجالات متعددة ونظريات مختلفة للوصول إلى مفهوم نراه مناسبًا لتحليل الخطاب والجملة، والجملةُ في مفهومنا: تركيب يُنْسَبُ فيه حَدَث ظاهر أو مُقدَّر يستغرق زمناً إلى وحدة أو وِحْدات لغوية (الكندي، ٢٠٢٠).

وقد فضّلنا أن نخصص المبحث الأول لمفهوم المسكوت عنه في الدراسات الغربية؛ لأنها هي التي اهتمت به اهتمامًا كبيرًا، وقامت لأجله نظريات ناقشت جُلّ جوانبه. وأما المبحث الثاني فقد عُدْنا فيه إلى تراثنا العربي لنبحث: هل كان عند علماء الإسلام في علومهم المختلفة– التصوّرُ نفسه للمسكوت عنه الذي يناقشه الفلاسفة واللسانيون والتأويليون والسيميائيون؟ وهل نجد في تراثنا ما يمكن أن يكون إضافة علمية ينبغي أن تستفيد منها الجهود الحديثة؟ ذلك لأنه لا يصح في البحث العلمي إنكار فضل المتقدم على المتأخر، وبعد هذا خلصنا في المبحث الثالث إلى الملامح التي فضّلنا أن نرسمها للمسكوت عنه؛ حتى يكون مفهومُه واضحًا عندما نرغب في البحث عنه في أي خطاب، وطبّقنا هذه الملامح على رواية "أنا يوسف" لأيمن علي حسين العتوم؛ رغبة في اختبار سلامة ما خلصنا إليه من ملامح المسكوت عنه المميزة لمفهومه؛ إذ لا يمكن أن تصح أية مقاربة ما لم تقدم آلية صالحة للتحليل.

المبحث الأول:

العلامة والمسكوت عنه في الدراسات الغربية:

تحت تأثير النظرية السلوكية يحدّثنا الفيلسوف البراجماتي الأمريكي تشارلز مورس (١٩٠١–١٩٧٩) عن العوامل الأربعة في عملية اشتغال العلامة simiosis، فيقول: "يستجيب كلب لصوت ما (S) فتتمثل استجابته في سلوك (I) لصيد السناجب (D). يُهيِّئ سائحٌ نفسَه ليتعامل تعاملًا مناسبًا (I) مع منطقة جغرافية (D) بحكم رسالة مكتوبة (S) استقبلها مِن صديق. في هاتين الحالَيْنِ نَعُدّ (S): حاملًا للعلامة Sign Vehicle و(علامةً أيضًا بِحُكْم وظيفته)، [ونَعُدّ] (D): مُعَيَّنا Designatum، [ونَعُدّ] (I): ردة فعل Interpretant خاصَّةً بمؤوِّل Interpreter. والتوصيفُ الأمثل للعلامة هو ما يلي: (S) [الرسالتان] علامة على (D) [صيد السناجب والتكيُّف مع المنطقة الجغرافية] لأجل [توليد] ردة فعل (I)، إلى درجة أن (I) تأخذ D بعين الاعتبار بسبب وجود (S). وهكذا نلحظ في عملية السيميوزيس أن هناك شيئًا يأخذ بعين الاعتبار شيئًا ثانيًا بواسِطةٍ –أي بوسيلةٍ– يصنعها شيء ثالث" (Morris, 1934: p3–4).

وقبل مورس طوّر مؤسس الفلسفة الذرائعية Pragmatism تشارلز ساندرس بيرس (١٨٣٩ – ١٩١٤) أنواع العلامات والموضوع والممثل، فقد فرّق في العلامات بين (الأيقونة icon) أي العلامة التي تماثل أو تشابه المشار إليه نحو صورة تشرشل المعبرة عن تشرشل، و(المؤشِّر indicator) أي

العلامة التي ترتبط بالمشار إليه بعلاقة سببية أو علاقة مبنية على قانون طبيعي نحو الدخان المشير إلى النار، و(الرمز symbol) أي العلامة التي ترتبط بالمشار إليه بعلاقة اجتماعية أو اعتباطية نحو الألفاظ (كوبلي، ٢٠١٦). وقسّم بيرس الموضوع إلى موضوع مباشر Immediate Object وهو الذي تُحِيل إليه العلامة قبل أن تُقيَّد بتأويل متلقِّيها، مثل موضوع الطقس قبل أن تُشاهِدَ طقسًا بعينه، وإلى موضوعٍ ديناميكي Dynamical Object وهو الموضوع الذي يفكر فيه متلقٍّ بعينه حين تأتيه العلامة، وهو موضوع مقيد بظروف مرّ بها هذا المتلقي مثل رؤيته للطقس الغائم قبل أن يذكر له أحد كلمة الطقس (Peirce, 1909).

وسمّى بيرس التصور الذهني ممثِّلًا، وجعل له ثلاثة أنواع، أولها الممثل المباشر Immediate Interpretant وهو الذي تقصده العلامة بنفسها (Peirce, 1905)؛ أي يمكن التوصُّل إليه بالعلامة وحدها (Peirce, 1906a)، فهو علاقة مباشرة بين العلامة والموضوع لا تتأثر باختلاف المؤوِّلين (Peirce, 1908)، ولا يصنع وعيًا شخصيًّا (Peirce, 1910)، ولأجل ذلك سُمِّي: معنى العلامة (Peirce, 1906b) والممثلَ الموضوعي، ومادام يقود إلى الموضوع فهو يساعد على معرفة الغرض من كلام المتكلم (Peirce, 1908) دون انتظار تأويل المؤوِّل، فهو يعطي قيمة ذاتية للعلامة (Peirce, 1906a)، وثانيها الممثِّل الديناميكي Dynamical interpretant وهو التصور الذهني عند متلقٍّ بعينه نتيجة ظروف معينة مرّ بها، وثالثها الممثل النهائي ultimate or final interpretant وهو المحصلة النهائية التي سيقترفها متلقي العلامة، فلو كانت العلامة هي (الجو عاصف) لربما كانت المحصلة النهائية إلغاء النزهة (Peirce, 1909).

وقد قدّمت فرانسواز أرمينكو (١٩٤٢-...) مصطلح "السياق الاقتضائي" عندما قسّمت السياق situation إلى أربعة أنماط، أولها (السياق الظرفي) وهو كل المحسوسات التي يحيل إليها العمل اللغوي، وثانيها (السياق الثقافي) ويعني الدلالات المتعارَف عليها والمعترَف بها على مستوى المتخاطبين، فهو معنى خاص بعلامة تعارفت عليه فئة من الناس أو طبقة خاصة، وثالثها (السياق اللغوي) بعناصره الصوتية والصرفية والتركيبية ودلالاتها الوظيفية، ورابعها (السياق الاقتضائي) وهو ما سكت عنه العمل اللغوي؛ لكن المتخاطبين يفهمونه ويترقبونه لأن اتجاهاتهم الفكرية توجّههم إلى فهم مدى مناسبة العمل اللغوي للسياقين الظرفي والثقافي (أرمينكو، ١٩٨٦)، ويمكن أن نقول إن السياق الاقتضائي معنى لا يحصل إلا بعد أن يتكرر موقف معين تقال فيه علامات لغوية يفهم منها دلالات محددة، بحيث تصير هذه الدلالات مفهومة في كل مرة تقال فيها نفس العلامات اللغوية في

الموقف نفسه، فإذا ما حصل في المستقبل نفس الموقف لكن نُزِعت منه بعض العلامات اللغوية التي اعتاد المؤول أن يسمعها في هذا الموقف؛ فإن عقله يقوم بتعبئة الفراغات الدلالية التي كان ينبغي أن تعبر عنها العلامات المحذوفة.

ومن أنواع السياق الأربعة نستطيع أن نفهم الفرق الذي قدّمه الفيلسوف البريطاني هوبرت بول جرايس Grice (١٩١٣–١٩٨٨) في سبعينيات القرن الماضي بين المعنى المصرَّح به the said والمعنى المسكوت عنه the unsaid، إذ قال إن المعنى المصرح به هو المعنى المتعارف عليه للعلامات، وأما المعنى المسكوت عنه فهو أن يُستعان بالعلامات على الوصول إلى معنى يقتضيه منطق الخطاب ولم يكن له لفظ يعبر عنه، وقد ضرب له جرايس مثالًا بمحادثة بين شخصين يتحدثان فيها عن شخص ثالث، إذ يقول (أ): "كيف صديقنا (ج)؟"، فيجيبه (ب): "أظن أن أموره على ما يرام، فهو يحب زملاءه، ولم يدخل السجن بعد"، فعبارة "لم يدخل السجن بعد" تخفي معنى آخر لا تدل عليه كلمات العبارة لعدم مناسبتها لسؤال (أ) (Grice, 1989). هنا نستطيع أن نقول إن المعنى المصرح به عند جرايس يشمل الظرفي واللغوي والثقافي، وإن المعنى المسكوت عنه مقصور على الاقتضائي.

أما راي جاكندوف Ray Jackendoff (١٩٤٥–...) –الفيلسوف الأمريكي المختص بعلم الإدراك– فقد قدّم تحليلًا يفرّق بين المعنى الحرفي (الظاهر) والمعنى غير الحرفي (الضمني) حين تحدّث عن تأليفة المنطقي الألماني غوتلوب فريغه (١٨٤٨–١٩٢٥)، وهي قانون يقول إن معنى الجملة أو العبارة أو الخطاب هو حاصل جمع معاني أجزائه والقواعد النحوية التي تؤلف هذه الأجزاء، فعندما نقرأ جملة (طارد الأسد الدب) نجد أن معنى الجملة مركب من اجتماع معنى الأسد ومعنى المطاردة ومعنى الدب، ولكن معنى الجملة لا يقتصر على وجود الكلمات إذ نجد نفس الكلمات في جملة (طارد الدب الأسد) إلا أن المعنى مختلف، لأن المطاردة حَدَثٌ يقع بين مطارِد ومطارَد، والجملة هي التي تحدد كلًّا منهما، ولأجل هذا نقول إن تتابع الكلمات محكوم بنظام نحوي ولا يمكن أن تؤدي الكلمات المعنى المتعارف عليه إلا وفق هذا النظام)، وأضاف جاكندوف أن الفلاسفة قدّسوا تأليفة فريغه، رغم أنها غفلت عن أربعة متعلقات (جاكندوف، ٢٠١٩):

١) الاستلزام [أو المقتضى presupposes]: وهو حاصل جمع معاني الكلمات والسياق الاجتماعي.
٢) الإضمار [أو المضمر أو المَخْفِيّ implied]: يعني حذف كلمات يمكن تقديرها، ومثاله رسمة كرتونية تصوّر رجلًا يتجه ليسقط من السطح، وامرأة تقول له: لا تفعل، فيفهم منها (لا تُلْقِ

نفسَك من السطح).

٣) تحويل المرجع: بعض الأعلام حين توضع في سياق تكون ملبسة إذا فهمناها بمعناها الذي يتبادر إلى أذهاننا أول الأمر، ومثال هذا أن تسمع عبارة (أفلاطون موجود هناك في الرف الأعلى بجوار فتغينشتاين) ويكون قصد المتكلم كتابَين لأفلاطون وفتغينشتاين؛ على أن يكون المخاطب على معرفة بأفلاطون وفتغينشتاين.

٤) القسر الجِهَوِيّ: إذا قلت (قفز جو حتى رنّ الجرس) فإنك تفهم أنه قفز مراراً رغم أن صيغة (قفز) لا تدل على ذلك، فما الذي دفعك إلى هذا القَسْر (الإلزام) المعنوي؟ إنه ليس مجموع كل كلمات الجملة؛ بل تغيّر معنى (قفز) لوجود (حتى).

واهتمت الدراسات التأويلية Hermeneutics بالقصدية فجعلت له ثلاثة أنواع، أولها قصدية المتكلم (توجّه عقله نحو معنى بعينه وإن كان خطابه يحتمل معاني أخرى لم يقصدها) وهذه القصدية هي التي يهتم بها أكثر التداوليين، وثانيها قصدية المؤوِّل (ما فهمه المؤوِّل المتصدي لتحليل الخطاب بحسب المقاربة التحليلية التي يتّبعها، وإن لم يوافق فهمُه مراد المتكلم)، وثالثها قصدية النص (كل الدلالات التي يحتملها النص بصرف النظر عن قدرة المؤول على الوصول إليها) (أمبرتو، ٢٠٠٤).

وقد خطا التداوليون خطوة متميزة نحو محاولة تحديد المعنى الذي يقصده المتكلم من بين كل المعاني المحتملة في خطابه، وذلك حين وضع أزفالد ديكرو سنة ١٩٧٣ نظرية الحجاج أو التعليمات، وفيها تحدّث عن الحجة (جملة مُسبِّبة) والنتيجة (جملة مُسبَّبة)؛ معتبرًا أن كل عنصر دلالي قد يكون قولًا أو فقرة أو نصًّا أو مشهدًا طبيعيًّا أو سلوكًا غير لفظي، والحجة تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق، وكذلك النتيجة، وبين الحجة والنتيجة رابط (مثل: بل، لكن، حتى) يمكن ذكره أو حجبه كما يظهر من الشكل الآتي (العزاوي، ٢٠٠٦).

ولتوضيح أهميّة نظرية الحجاج في تحديد المعنى المسكوت عنه يمكننا أن نطرح المثال الآتي مستثمرين العوامل الحجاجية:

- تشير الساعة إلى الثامنة.
- لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة.

فإن إدخال العامل الحجاجي (أداة القصر: لا – إلا) لم ينتج عنه اختلاف بين المثالين في القيمة الإخبارية؛ وإنما الذي تأثر هو القيمة الحجاجية، فلو قلنا:

- تشير الساعة إلى الثامنة. أسرع
- لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة. أسرع

نجد أن القول الأول مقبول؛ وأن القول الثاني غريب محتاج إلى سياق خاص لقَبوله، ولو عدنا إلى القول الأول (تشير الساعة إلى الثامنة) وجدناه يخدم نتائج عدة متوقعة هي:

- الدعوة إلى الإسراع.
- الإقرار بحصول التأخر.
- هناك متسع من الوقت.
- موعد الأخبار.

وهذا يعني أن هذا القول الأول يخدم كل النتائج التي من قبيل "أسْرِع" وكل النتائج المضادة لها "لا تسرع"، وحين أدخلنا عليه العامل الحجاجي الدال على الحصر (لا–إلا) في المثال الثاني (لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة) تقلصت احتمالات نتائجه، فصار الاستنتاج الممكن له هو:

- لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة.. لا داعي إلى الإسراع.

إن طريقة ديكرو تُستعمَل حين يكون التركيب منزوعًا من سياقه (مقامه)، وذلك لوضع كل الاحتمالات الممكنة للمعنى الذي قصده المتكلم عبر إضافة بعض الكلمات والاستعانة بالقوانين المستخلصة من عادات المتحدثين في نظام لغوي، ويُطْلَق مصطلح الشفرة على كلمة أو صياغة موجودة في جملة تُعِين المتخاطبين على إرادة معنى غير مباشر لأنهم اعتادوا على استعمال هذه الكلمة أو الصياغة في هذا النوع من الجمل للدلالة على هذا المعنى غير المباشر (موشلر، وريبول، ٢٠١٠)، وهذا يشرح لنا أن المسكوت عنه يحصل على مستوى الجملة كما يحصل على مستوى الخطاب.

المبحث الثاني:

المعنى والمسكوت عنه في التراث العربي:

من مفاهيم مصطلح (المعنى) عند علماء الكلام وغيرهم التي ذكرها (الكفوي، ١٩٩٨) أنه ما قُصِد وكان مفهومًا من اللفظ نفسه، فهذا معنى اللفظ أو معنى الذات (أي المعنى المفهوم باللفظ ذاته)، أو ما قُصِد وكان مفهومًا بالتبعية فهذا هو المعنى بالعَرَض، وقيل في التفرقة بينهما أن الأول هو الذي يُفْهَم باللفظ دون واسطة، وأن الآخَر هو المعنى الذي يفضي إليه معنى آخر. وقالوا في الفحوى إنها كل

مفهوم، وقيل هي المفهوم المقطوع به نحو تحريم ضرب الأبوين المفهوم من تحريم التأفُّف منهما، وقالوا إن المدلول أعم من المسمى لأنه يشمل المسمى، ودلالة الالتزام (مثل لفظ السقف فإنه يستلزم وجود الجدار)، ودلالة التضمن (مثل دلالة لفظ الإنسان على رأسه وسائر أعضاء جسده).

وكان (الجرجاني، ١٩٩٢) قد جعل الكلام على ضربين: ضرب تصل إلى معناه من لفظه، وهو الحقيقة، وضرب يوصلك إلى معنى، ثم تجد لهذا المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، وقد مثّل لمعنى المعنى (أو المعنى الثاني) بأمثلة من أبواب التشبيه والاستعارة والكناية.

ويُطْلِق الأصوليون مصطلح "المفهوم" على المعنى المتبادر إلى ذهن المتلقي من الخطاب الشرعي دون أن يكون له لفظ يعبر عنه، فهو مسكوت عنه يتأتى بطريق الموافقة، فأما الموافقة فهي أن يُعْلَم أن المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به، ويسمى عندئذ: فحوى الخطاب، ومثاله قوله سبحانه {ولا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ} (سورة الإسراء: ٢٣) فإنّ الشرع إذا حرم التأفيف كان تحريم الضرب أولى. وأما المخالفة فقد قال بها أكثر المالكية والشافعية، وأنكرها جمهور الحنفية، ومثالها احتجاج المالكية على أن واجد الطَّوْل (الفضل والغِنَى واليُسْر) لا يحل له نكاح الأمَة بقوله تعالى: {ومَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أن يَّنْكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَاتِ} (سورة النساء: ٢٥) فإن مفهومه أن من استطاع الطول فليس له نكاح الأمَة المعبَّرِ عنها بالفتيات المؤمنات (التِّلْمِسانيّ، ٢٠١١).

وبالنظر إلى مفهوم الموافقة نجد أنه يقتضي أن المذكور والمسكوت عنه كليهما من جنس واحد، إلا أن الصفات الذاتية للجنس أوضح في المسكوت عنه منها في المذكور، ولأجل هذا يَتوصل المخاطب إلى المسكوت عنه من طريق عقلي هو ربط النوع بالجنس في حكم واحد، وليس من طريق حذف علامات يقتضيها سياق الحكم.

وأما مفهوم المخالفة في المثال المعروض فليس من المسكوت عنه لأنه ليس هو المتوقع عند المتلقي، فمن المقرر عند جمهور الأصوليين أن "نفي الشيء لا يدل على ثبوت غيره" (الأسْنَويّ، ٢٠١١، ص:١٩٧)، فلو أن زيدًا قال (ليس عليّ مائة ﷼ لعمرو) لم يجز أن يُؤوَّل كلامه إلى أن عليه تسعة وتسعين ريالًا لعمرو، وإنما يكون مفهوم المخالفة من المسكوت عنه إذا انطبقت عليه خمسة شروط قرّرها أكثر المالكية والشافعية، وهي (التلمساني، ٢٠١١):

<u>الشرط الأول:</u> ألا يخرج اللفظ مخرج الغالب: كقوله تعالى: ﴿**ولا تُكرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا**﴾[النور: ٣٣] فمفهوم المخالفة فيه أن اللاتي لا يُرِدْنَ التحصُّن يجوز أن يُكْرَهْن على

البغاء. ويُجاب بأن الآية خرجت مخرج الغالب: (يغلب على الفتيات عدم الرغبة في الإكراه) ولم تقصد مفهوم المخالفة.

الشرط الثاني: ألا يخرج اللفظ عن سؤال معيَّن: ومثله أن رسول الله ﷺ سئل عن صلاة الليل أي قيام الليل، فقال: ((صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدُكم الصبح فليركع ركعة تُوتِرُ له ما قد صلّى)) (البخاري: ٩٩٠، مع اختلاف اللفظ) فلا يجوز هنا حمل الحديث على مفهوم المخالفة فلا يقال إن صلاة النهار رُباع رُباع؛ لأن الحديث وقع فيه التخصيص بالليل.

الشرط الثالث: ألا يقصد الشارع تهويل الحكم وتفخيم أمره؛ كما في قوله تعالى: ﴿**حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة: ٢٣٦] و﴿**حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾[البقرة: ٢٤١] فإن ذلك لا يُشْعِر بسقوط الحكم عمّن ليس بمحسن ولا بمُتّقٍ. وقالت الحنفية: ومن باب التفخيم أن رسول الله خصّ الإحداد بالمؤمنات فقال: ((لا يَحِلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تَحُدَّ على ميِّتٍ فوق ثلاث؛ إلا على زوج أربعةَ أشهر وعشرًا)) (ابن حِبّان: ٤٣٠٤)، فتخصيصه هذا لا يُفْهَم منه أن الإحداد لا يجب على الذمية المتوفى عنها زوجها.

الشرط الرابع: ألا يكون المنطوق محل إشكال في الحكم أُزِيل بالتنصيص عليه؛ كما قال أصحاب أبي حنيفة: إن الكفارة إنّما نُصّ فيها على قتل الخطأ رفعًا لنزاع من يتوهم أنها لا تجب على القاتل خطأ، فَرَفَعَ الشرعُ هذا الوهمَ بالنص عليه، ولم يَقْصِدْ من هذا الرفع المخالفةَ بين القتل العمد والقتل الخطأ في الكفارة، فلا يُفْهَمْ أن من قتل عمدًا لا تجب عليه الكفارة.

الشرط الخامس: ألا يكون الشارع ذكر حدًّا محصورًا للقياس عليه لا للمخالفة بينه وبين غيره؛ كقوله ﷺ: ((خمسةٌ فواسقُ يُقتلْنَ في الحل والحرم: العقرب والفأرة والحِدَأةُ والغراب والكلب العقور)) (ابن القيسراني: ١٢٩٥/٣ مع اختلاف اللفظ) فإن مفهوم هذا العدد ألا يقتل ما سواهن؛ لكن الشارع إنما ذكرهن ليُنْظَرَ إلى إذايتهن، فيَلْحَق بهن ما في معناهن، وهذا كقوله ﷺ: ((اجتنبوا السبع الموبقات: الشِّركُ بالله، والسِّحْرُ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)) (مسلم: ٨٩) فإنه لم يقصد حصر الكبائر فيهن، وإنما ذكرهن ليُلحِق بهن ما في معناهن.

وكأن الشرط الخامس والرابع يَرْجِعُ بالمفهوم إلى القسم الخفي من الموافقة، ولذلك قال بعضُهم: من شرط مفهوم المخالفة ألا تظهر أولوية، ولا مساواة في المسكوت، فيصير موافقة، فإذا تقررت تلك الشروط أمكننا أن نقول إن الإضافة العلمية التي يمكن أن يهديها علم أصول الفقه للنظرية التداولية يكمن في الأصناف السبعة للمسكوت عنه الناتجة عن مفهوم المخالفة، وهي (التلمساني، ٢٠١١):

١) **مفهوم الصفة:**

ومثاله احتجاج المالكية على ثمر النخل غير المأبورة (غير المُلقَّحة) للمبتاع بقوله ﷺ: ((مَن باع نخلًا قد أُبِّرت فثمرُها للبائع إلا أن يشترط المُبْتاعُ)) (البخاري: ٢٢٠٤)، ومفهوم هذه الصفة أن النخل إن لم تؤبر فثمرها للمشتري. وكذلك احتجاج المالكية على أن البكر تجبر على النكاح بعد البلوغ بقوله ﷺ: ((والثَّيِّبُ أحقُّ بنفسها مِن وليِّها)) (مسلم: ١٤٢١)، فإن مفهومه أن غير الثيب لا تكون أحق بنفسها، فيكون وليها أحق منها وله إجبارها.

٢) **مفهوم الشرط:**

ومثاله احتجاج المالكية أن واجد الطَّوْل لا يحل له نكاح الأمَة بقوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُم طَوْلًا أَن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**﴾[النساء: ٢٥] فإن مفهومه أن من استطاع الطول فليس له نكاح الفتيات.

٣) **مفهوم الغاية:**

مثاله احتجاج المالكية على أن الغسل يُجْزئ عن الوضوء بقوله تعالى: ﴿**حَتَّى تَغْتَسِلُوا**﴾[النساء: ٤٣] فإن مفهومه: إن اغتسلتم فلكم أن تقربوا الصلاة.

٤) **مفهوم العدد:**

احتج الشافعي على أن النجاسة إذا أصابت الماء الذي دون القُلَّتَيْنِ نَجَّسَتْه بقوله ﷺ: ((إذا كان الماءُ قُلَّتَيْنِ لم يحمل الخَبَث)) (ابن عبد الهادي: ٣٤) فإن مفهومه أن ما دون القلتين يحمل الخبث.

٥) **مفهوم الزمان:**

احتج أهل الظاهر على أن النوافل بالنهار لا تتقدر بقدر معين بقوله ﷺ: ((صلاةُ الليل مثنى مثنى)) (البخاري: ٩٩٠) فإن مفهومه: صلاة النهار لا تتقدر مثنى مثنى. ولم يقل به المالكية لأنه خرج عن سؤال.

٦) **مفهوم المكان:**

احتج الظاهرية على أن المعتكف يباح له مباشرة النساء في غير المسجد بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**﴾[البقرة: ١٨٧] فإن مفهومه: فإن كنتم في غير المساجد فباشروهن. ولم يقل به المالكية لأنه خرج مخرج الغالب إذ غالب أحوال المعتكف أن يكون في المسجد ولا يخرج عنه إلا لضرورة.

٧) **مفهوم اللقب:**

احتج الشافعية على أن التيمم لا يجوز بغير التراب بقوله ﷺ: ((جُعِلت لنا الأرض كلُّها مسجدًا وجُعِلت تُرْبتُها لنا طَهُورًا)) (ابن حجر العسقلاني: ١٢٣) فإن مفهومه أن غير التراب لا يكون طاهرًا. واعلم أن المفهومات تتفاوت قوة وضعفًا؛ لكن مفهوم اللقب لم يقل به إلا الدَّقّاق وبعض الحنابلة.

المبحث الثالث:
المفهوم الذي تتبناه الدراسة للمسكوت عنه:

تبيّن لنا مما مضى في المبحثين السابقين أن المسكوت عنه يتردد مفهومه بين مقاربات قديمة وحديثة، ولا يمكن إجراء أية دراسة تطبيقية لاستخراج المسكوت عنه في أي خطاب إلا إذا استند هذا الإجراء على مفهوم واضح للمسكوت عنه يزيل كل الجوانب الضبابية التي تَحُول دون قدرة المحلل على الوصول إليه حين ينزل إلى ميدان التطبيق؛ لأجل هذا قدّمنا إشكالات مفهوم المسكوت عنه في المبحثين لكي نخلص في هذا المبحث الأخير إلى تفاصيلَ وتطبيقاتٍ نراها ضرورية للوصول إلى مفهوم نقترحه للمسكوت عنه ينبني على حدود واضحة وسمات سنعرضها في الفقرات الآتية، مستشهدين عليها بأمثلة من رواية "أنا يوسف" لأيمن العتوم الصادرة في طبعتها الأولى عام ٢٠١٩.

إن البحث عن المسكوت عنه في رواية "أنا يوسف" يفتح لنا زوايا جديدة من النظر إلى مفهوم المسكوت عنه لم تُطْرَق سابقًا، وهي رواية تاريخية في ثمانية وأربعين فصلًا موزَّعة على ثلاثمائة وخمسين صفحة من القَطْع الصغير، تسرد حكاية النبي يوسف عليه السلام، ولا شك أن حياة يوسف تتقاطع مع بعض الجوانب في حياة الكاتب، وفيها يضمّن اقتباسات دينية نحو: مفحص قطاة، لعل هذا آخر عهدي بكم، وإياكم وكثرة السؤال، يثير خائنة الأعين وما تخفي الصدور (العتوم، ٢٠١٩). ويحشّي روايته بالأمثال العربية والأقوال السائرة نحو: العجلة تورث الندم، تزببت وأنت حُصْرم، إنه من يعش ير عجبًا، لا نأكل من الغنم إلا القاصية (العتوم، ٢٠١٩)، وقد يستشهد بالشعر نحو (طرفة، ٢٠٠٠):

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والمـاء فوق ظهورهـا محمول

وأما الرؤية الإنسانية والنقد السياسي فنلمحه في نحو قوله بلسان زعيم الذئاب العسعاس– عن البشر: "ولو كانوا يدركون أن الأرزاق تجري على الأقدار لما اقتتلوا" (العتوم، ٢٠١٩: ص٧)، وقوله: "يا معاشر الذئاب، لا يفضل بعضكم بعضًا إلا بثلاث: الحكمة والتقوى والعمل" (السابق، ص١١)،

وقوله: "يا معاشر الذئاب، إنا لا نعطي قيادنا إلا لمن خاف الله فينا، ولا نسلم أمورنا إلا لمن رعى ذمامنا، وعاش فينا مِنّا، يجوع إذا نجوع، ويعرى إذا نعرى، ويتعب إذا تعبنا، ويأكل مما نأكل، ويلبس مما نلبس، فمن رأى أنه فوق ذلك نبذناه ولا نبالي، والعاقبة للمتقين" (السابق، ص١١).

وقد تتلبس بعض المواضع بالمعتقدات الأقرب إلى الصوفية، مثل اعتقاده أن اصطفاء النبي يسبقه إرهاص بصحة الرؤيا: "صِدْق الرؤيا أول منازل النبوة" (السابق، ص١٥)، واعتقاده باتصال الأرواح بالعالم الروحاني الأعلى: "أرواح متصلة بالملكوت الأعلى" (السابق، ص١٥)، ونلحظ عقيدة الجبر على لسان يوسف عليه السلام: "الأقدار لا تميز بين الأشخاص في أن تصيب غرضها، بعض الأشخاص أدوات لها، بعضهم أهداف" (السابق، ص٤٧) حتى إن النبي يوسف يُلْقي بنفسه في التهلكة أو يقبل بها لأنه يراها قدرًا محتومًا، فقد قبل باتهام عمته له بسرقة حزام جده عليه السلام: "بعض ما نرى قدر تجري علينا نواميسه" (السابق، ص٣٥)، وقَبِل الخروجَ مع إخوته –مع علمه السابق بكيدهم له– فقال لأبيه: "لن يحدث إلا ما كان في اللوح، لا أنا ولا أنت ولا إخوتي نستطيع أن نوقف ما يحدث" (السابق، ص٣٢).

وتحمل كثير من عنوانات فصول الرواية– الحكمةَ، نحو: لا يُهاب إلا من كان ذا رهط، اتْبَعِ الذئب يدلّك على الطريدة، الحزن لا يعيد الفائت، الطمع شَرَكٌ قاتلٌ.

إن تلك السمات الخاصة بأسلوب أيمن العتوم –بالإضافة إلى خصوصية النص السردي– جعلت روايته "أنا يوسف" أرضًا خصبة لأنواع من المسكوت عنه تتخذ طرائق شتى في التعبير، وتسهم في النظر إلى مفهوم المسكوت عنه نظرة أرحب، ولأجل هذا نقدّم في الفقرات الآتية السمات التي نراها أنسب لتقديم مفهوم واضح للمسكوت عنه، ونمثّل لكل سمة بمثال من الرواية.

أول سمات المسكوت عنه أن الوصول إليه يقتضي معرفةً لأمر موجود في الخطاب، وأمر آخر موجود خارج الخطاب، فأما الأمر الموجود في الخطاب فهو معاني أجزائه (كلماته)، والقواعد النحوية التي تنشأ من اجتماع هذه الأجزاء، وأمَّا الأمر الذي هو خارج الخطاب فهو معرفة ما الذي يمكن أن يفهمه شخص ينتمي إلى سياق ثقافي معين من عبارة معينة؟ فإذا أردنا التمثيل لهذا التشفير من رواية "أنا يوسف" وجدنا الروائي يصف زعيم الذئاب في الفصل الأول بقوله: "كيف ينقادون للعسعاس بهذه السهولة؟ كيف يسمعون له كأنما رُكِّبَتْ في طبائعهم ألا يخالفوا عن أمره ولو مرة واحدة؟" (السابق، ص٥)، وقوله: "لم يكن من ذئب من قبله يتقن الركض في خط مستقيم مثله" (السابق، ص٥)، وقوله: "كل ذئب لأخيه: العسعاس سيقول اليوم حكمته، فامض بنا إليه نسمع منه، فما من أحد عركته الأيام مثله، وما من ذئب عاش ما عاش، وما عرف أحد من الدنيا شيئًا إلا به، ولا فهم ذاته إلا فيه، وما

صدر عن رأي إلا عنه، ولا أدرك الغاية من وجوده إلا بسببه" (السابق، ص٦)، ويُعَيْدَه ذكر الكاتب بعض الدول العربية موطنًا لهذه الذئاب، فالمسكوت عنه هنا يفهم من السياق الثقافي، وهو سياق تكوّن من زعيم ورعية ودول عربية، فمجموع مفردات هذا السياق ينمّ عن الطاعة المطلقة التي تتصف بها الشعوب العربية إزاء قادتها، ثم المنزلة المثالية لهؤلاء القادة الراسخة في أذهان رعاياهم.

إن السمة السابقة للمسكوت عنه تقودنا إلى سمته الثانية وهي أنه معنى مقدر ليس له لفظ يعبّر عنه في السياق، فقولنا "الطاعة المطلقة التي تتصف بها الشعوب العربية إزاء قادتها" معنى مقدّر لم يرد بهذا اللفظ في الرواية ولا بأي لفظ آخر يرادف معناه، وقد أوضحنا آلية التوصل إليه في حديثنا عن "السياق الاقتضائي"، ونمثّل له بعنوان "العشاء الأخير" الذي جعله أيمن العتوم عنوانًا للفصل الثامن، وهو فصل يتحدث عن آخر ليلة قضتها العمة فائقة مع ابن أخيها يوسف، فقد كان عشاؤهما في بيتها آخر عشاء قدّمته لها قبل أن تفارق الحياة، وهذا العنوان في الثقافة المسيحية يُحِيل إلى العشاء الأخير الذي كان بين اليسوع ﷺ وتلاميذه (الحواريين) قبل اعتقاله وصلبه، وقد جعله اليهود يومًا لعيد الفُصْح، فالناظر في نصّ أيمن العتوم يرى أنه ترك بعض العلامات اللغوية الدالة على هذا التناصّ المسكوت عنه، وحذف علامات أخرى، فالموقف المتكرر هنا هو موت عمة يوسف بعد عشائها الأخير مع يوسف الذي ربّته وأدّبته، وهو نفسه موقف قتل المسيح بعد آخر عشاء مع تلاميذه الذين علّمهم وأدّبهم؛ لكن أيمن العتوم نزع من نصه العلامات اللغوية الواردة في نص المسيح، فلم يذكر المسيح ولا تلاميذه ولا صلبه.

ولكن.. ماذا كان يحصل لو لم يَعْرِف المؤوِّل شيئًا عن العشاء الأخير الذي جرى بين المسيح وتلاميذه؟ هل كان له أن يتوصل إلى هذا المسكوت؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تقودنا إلى السمة الثالثة للمسكوت عنه، وهي أن المؤوِّلين يختلفون في قدرتهم على فهم المسكوت عنه لتفاوت معارفهم السابقة المتعلقة بالخطاب الذي يواجهونه.

ويُفْهَم المسكوت عنه إذا كانت العلاقة بينه وبين المعنى المصرح به علاقة منطقية يدركها أي عقل سَوِيّ، مثل العلاقة بين السبب والنتيجة، أو بين الجزء والكل، أو بين الجزئي والكلي، ولعل خير مثال لهذا ما يفهم من خطاب يوسف الطويل الذي وجّهه لصاحبيه في السجن، وهو خطاب يقول فيه: "سيِّد نفسه من استطاع ألا يسلبه يقينَه أحدٌ، من سلبك مالك لم يسلبك قلبك، ومن سلبك حريتك لم يسلبك سعادتك، لا سلطة لأحد على أحد، ما تحررت من شيء تحررك من جسدك، فَدَعُوهم يفعلوا به ما شاؤوا... إنما نحن من الله، وإلى الله، فما الفرق بين أن نجلس على هذا الحشيش

اليابس في هذا السجن في باطن الأرض وبين أن نجلس على ذلك العرش في ذلك القصر في درجات العلو فوق الأرض؟... فإن سألتموني: ما الفرق إذًا بيننا وبينهم؟ قلت لكم: إنه في هذا القلب" (السابق، ص٢٥٢-٢٥٣)، فإن يوسف يصرح لصاحبيه بالأسباب المعينة على السعادة القلبية، ومادامت تَغْذية الروح هي التي تحقق السعادة القلبية فهذا يعني أنه يدعوهم إلى النتيجة المسكوت عنها الواضحة وهي: التزموا بما نصحتكم به إن رغبتم في الراحة النفسية والسعادة القلبية.

ومن سمات المسكوت عنه أنه يمكن أن يكون جزءاً محذوفاً من بنية عميقة، بحيث إن تقديره يسهم في تقديم الجملة الأكمل التي كان ينبغي أن يقولها المتكلم، وقد تصل مسألة التقدير إلى ضرورة مُلِحّة لعدم تناسب الأجزاء الملفوظة بعضِها مع بعض، فهي مفتقرة إلى عنصر محذوف يحقق الترابط الدلالي بينها، وهذا يكون أوضح في حذف بعض العناصر النحوية لإمكان أن يقدرها المخاطب، نحو ما جرى في الحوار بين ملك مصر وإحدى صويحبات زليخاء: "فردّ مضيّقًا عينيه: (مَن يوسف؟). (فتى زليخة). (وزليخة مَن تكون؟). (زوجة الوزير الأول). فبان العبوس في وجه الملك: (اللذين سلبتهما ما أعطيتهما؟)" (السابق، ص٢٦٣)، فلو أردنا كتابة كل العناصر المكملة للبنية العميقة وأن نجعل تحتها خطًّا لقلنا: "فردّ عليها مضيّقًا عينيه قائلًا: (مَن يوسف؟). فقالت: (فتى زليخة). فسألها: (وزليخة مَن تكون؟). فقالت: (زوجة الوزير الأول). فبان العبوس في وجه الملك وقال: (هل تقصدين اللذين سلبتهما ما أعطيتهما؟)".

وقد لا يكون المسكوت عنه أجزاء ناقصة من بنية عميقة مذكورة؛ بل يكون جملة مستقلة أو عناصر لغوية تضاف إلى الخطاب لاختبار التأويل الأنسب للمصرح به، وهنا نتحدث عن سمة خامسة هي أن العوامل والروابط الحجاجية تكون أحياناً وسيلة لاختبار المعاني المتعددة المسكوت عنها التي يمكن أن يحتملها الخطاب الواحد؛ بحيث يُستبعَد بعضهُا ويُقبَل بعضُها الآخر، أو يُقْبَل جميعُها. ولنأخذ مثالًا على ذلك الجدل الذي نراه في قول أيمن العتوم: "الذئب ريح لأنه يأتي من كل جهة. الريح ذئب لأنها تعوي مثله. تُرى مَن أعار صوتَه للآخر؟! الحادث يستعير من القديم، والعارض يستعير من الأزلي، والفطن يستعير من الحكيم. لا أقدمَ من الريح! ولا أحكم من الذئب!" (السابق، ص١٥)؛ إذ يبدو منذ الوهلة الأولى أن الكاتب لم يجزم بمن استعار من الآخَر صوتَه: آلذئب استعار من الريح صوتها أم الريح استعارت منه صوته؟ ويمكننا أن نختبر التأويلات المحتملة باستعمال العامل الحجاجي (كُلّ) الدال على التعميم فنقول:

١- كل حادث يستعير من القديم.

٢- الريح قديمة.
٣- الذئب حادث.
٤- الريح تأتي من كل جهة.
٥- الذئب استعار من الريح المجيء من كل جهة.

إذ نلحظ أن القضايا الأربع المتقدمة كانت حجة، وأن القضية الأخيرة هي نتيجتها، وتمثل هذه النتيجة الاحتمال الأول من مجموعة احتمالات يُعَدّ كل منها مسكوتًا عنه، وكان الموضوع في القضية الأولى هو (كل حادث)، والمحمول هو (يستعير من القديم صوته).

فأما الاحتمال الثاني (أو المسكوت عنه الآخر) فهو أن نستعمل العامل الحجاجي نفسه مع تغيير الموضوع والمحمول:

١- كل فَطِنٍ يستعير من الحكيم.
٢- الذئب حكيم.
٣- الريح ليست حكيمة.
٤- للذئب عُوَاء.
٥- الريح استعارت من الذئب عواءه.

وبهذا التحليل الحجاجي نجد أن كلا الاحتمالين وارد؛ فالخطاب هنا أفرز تعدُّدًا في المسكوت عنه.

إن دور المؤوّل في تقدير المحذوف يُسْلِمُنا إلى الحديث عن سمة سادسة هي القصدية، ونرى أن القصدية التي يتطلبها المسكوت عنه متعلقة بالمؤوِّل؛ لأنه هو الذي يتنبّه للعلامات المفقودة ودلالاتها باعتباره ينتمي إلى النظام اللغوي نفسه الذي ينتمي إليه المتكلم؛ لكنها قصدية لا تمنحه حرية التأويل؛ بل تُلْزِمه بالدلالة التي تناسب الموقف، وهنا لا داعي إلى اشتراط أن توافق هذه الدلالة قصدية المتكلم؛ لأن المتكلم قد يضمر تلاعبًا حين يحذف علامات في موقف يتطلب هذه العلامات، ومِن ثَمّ يستحيل فهم قصده لأنه لم يَعُدْ ثمة قرينة تعين على معرفة معناه الغيبي، ومن أمثلة ما يمكن لقارئ الرواية أن يؤوله إلى معان ضمنية مسكوت عنها قول الروائي واصفًا إخوة يوسف قبل أن يدبروا مكيدة إبعاده عن أبيه: "الحياة تمضي. الأيام تدور. من يوقف الساقية؟ صانعها. إنها مسألة وقت فحسب، الأبناء يخرجون في الصباح، يرعون في الحقول. يصنعون الرماح، يتدربون على القتال، يزدردون الحجارة، يأكلون كل شيء، يَتَحَدَّون الشمس، يقهرون الخوف، يتغلبون على المستحيل، يفتكون بالضعيف، ولا يتركون لشيء لا يريدون حدوثه أن يحدث. جبّارون لكن بطريقتهم.

وحده شيء ما صغير، صغير جدًّا كأنه رأس إبرة ينخز قلوبهم، كل واحد منهم كانت له تلك الإبرة، يجد ألمها في قلبه" (السابق، ص٤٣)، ففي هذا الخطاب دلالات ضمنية محتملة، أولها ما يتعلق بتأويل قوله "يأكلون كل شيء" فهي عبارة تحتمل معنى أنهم يَقْبَلون أي نوع من الطعام لأنهم يعيشون في بلاد كنعان المقفرة، وتحتمل أنهم يأكلون كل ما يصادفهم من النبات والحيوان فهم شرهون يتّسمون بالشراسة. والأمر الآخر يتعلق بمدى انطباق كل هذه الصفات العنفوانية على كل الإخوة العشرة غير الأشقاء ليوسف، ذلك لأن بعضهم كان قريباً من سن يوسف، فقد قال دان لأبيه يعقوب متحدّثًا عن يوسف في موضع لاحق من الرواية: "قد لا أكبره كثيرًا في العمر، ولكن ها أنذا أجوب القفار وأضرب أكباد الإبل، وأتتبع مساقط الغيث، وأزرع وأحصد، وأتعب، وأرتاح، وأغدو وأروح، ولستُ استثناءً من بين إخوتي" (السابق، ص٦١)، ففي حديث دان تصريح بأنه يتعب ويكِدّ في العمل؛ لكنه لا يصرح بأنه قد بلغ من الشراسة والجبروت ما بلغه إخوته الكبار.

وثمة سمة سابعة للمسكوت عنه، أنه يحصل بالعلامات اللغوية وغير اللغوية، ولا نجد عند أيمن العتوم استثماراً للعلامات غير اللغوية، ما خلا طرائق كتابة بعض الكلمات، والانزياح في التوظيف المألوف لعلامات الترقيم، واستعمال الجرس الصوتي لتعزيز المعنى في الذهن، فهو عندما يريد إثارة مزيد من التعجب يكنّي عنه بمضاعفة علامة التعجب نحو "وأنا أقول ما أجملها!!" (السابق، ص٥٣)، وعندما يريد الكناية عن مطّ الصوت يكرر حرف المد نحو "ووضع روبيل كفيه، وجعلهما مثل البوق أمام فمه، وعوى: (يوسف.. يووسف.. يووووسف)" (السابق، ص٣٢٧)، ونجده يختار للفصل الثالث والأربعين عنوان "يُسْتَرَقّ مَن سَرَق" فيجعل الجناس موحيًا بمسكوت عنه هو أن جملة "يُسْتَرَقّ" ليست علاقتها بجملة "سَرَقَ" مقصورة على الدلالة وهي أنها حَدَثٌ ناتج عن حدث آخر يتقدمه زمانًا، وإنما هو عنوان فيه تلميح إلى قضية ميتافيزيقية وهي أن العرب قد تشتق اللفظ المعبر عن الجزاء من حروف اللفظ المعبر عن الشرط، وكأن الجزاء يصبح رَجْعًا في الصوت، وصدىً يُكرِّر الشرطَ، ويقوي معناه.

وثمة سمة ثامنة للمسكوت عنه، وهي أن مدلوله لا يخلو من أن يكون موافقاً لمدلول المصرح به، أو مناقضاً له، وهنا أريد أن أفرق بين (مفهومَي الموافقة والمناقضة المنطقيين اللذين أعتبِرُهما من سمات المسكوت عنه)، و(مفهومَي الموافقة والمخالفة عند الأصوليين). فالموافقة عند الأصوليين تعني أن المسكوت عنه أولى بالحكم من المصرح به؛ لأن كليهما من جنس واحد إلا أن صفات الجنس في المسكوت عنه أوضح منها في المصرح به، ومثال هذا تحريم اتباع خطوات الشيطان

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[النور: ٢١]، فالمصرح به النهيُ عن اتباع الخطوات التي تقود إلى الفحشاء والمنكر، والمسكوت عنه هو تحريم الفحشاء والمنكر، وكلاهما –المصرح به والمسكوت عنه– من جنس المنهيّ عنه فهما متوافقان في أنهما منهيّ عنهما. وأما مفهوم المخالفة عند الأصوليين فهو قلب جملة المصرح به من الإثبات إلى النفي، أو من النفي إلى الإثبات، مع شرط أن يكون الحكم صالحًا للمعكوس (المصرح به) والعكس (المسكوت عنه)، فهذا المفهوم –وإن سمّاه الأصوليون مخالفة– أراه من مفهوم الموافقة؛ لأن العكس لا يَنْقُض حُكْمَ المعكوس، بل يؤيده، فأنت حين تسمع قوله ﷺ: ((لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها)) (الذهبي: ٤/ ٢١٣٩) تفهم أن اللعنة لا تحل على من ليس له علاقة بأي عمل من أعمال الخمر، فهذا المفهوم المخالف لا يتعارض مع لعن من شارك في أحد أعمال الخمر، ومعنى هذا أن مفهوم المخالفة عند الأصوليين يقتضي أن المسكوت عنه لا ينقض حكم المصرح به، بل يقوّيه. وأما ما نقصده نحن بالمناقضة فهو أن يكون المصرح به غير مقصود، وإنما المقصود هو المسكوت عنه، فهما متعارضان لأن الأخذ بحكم المسكوت عنه يقتضي عدم إمكان الأخذ بحكم المصرح به، ومثال هذا قوله تعالى مخاطباً الأثيم: {ذُقْ إنك أنت العزيزُ الحكيم} (الدخان:٤٩)، فإن المصرح به هو وصف الأثيم بالعزة والحكمة، وهما معنيان غير مقصودين، وإنما المقصود هو المسكوت عنه المناقض وهو "إنك أنت الذليل الأحمق". ومثال المصرح به غير المقصود، والمسكوت به المقصود؛ في رواية أيمن العتوم– قولُ إخوة يوسف لأبيهم بعد أن سألهم (هل تحفظون يوسف؟): "نعم نحفظه بقوّاتنا، ونفديه بأرواحنا" (العتوم، ٢٠١٩: ص٦٢)، فقد كانوا يكذبون؛ إذ بيّتوا قبل ذلك قتله وفق ما جاء في فصل سابق في الرواية، وإنما ينتظرون من أبيهم موافقته على خروج يوسف معهم لينفّذوا ما بيّتوه.

وفي الخطاب الروائي تظهر سمة تاسعة قد تغيب في الخطابات اليومية القصيرة، وهي أن النص الروائي خطاب طويل قد يسكت عن معنى في فصل ثم يكشف عنه في فصل آخر، الأمر الذي يقتضي ألا نعُدّه من المسكوت عنه لأن له لفظًا يعبر عنه وإن بَعُدَ عنه في الموضع، وذلك إيمانًا منا بأن كل رواية تمثل خطاباً واحداً، ولعل من طريف هذا الأمر أن رواية "أنا يوسف" بدأت بفصلين عما جرى بين العسعاس وبقية رعيته من الذئاب، الأمر الذي يوهم القارئ أنها رواية على لسان الحيوان، فيظل يُلِحّ في ذهن القارئ سؤالٌ عن مسكوت عنه هو "ما علاقة ما يجري بين

الذئاب بعنوان الرواية؟"، فتأتي التخمينات المتعددة للإجابة عن هذا السؤال؛ إلى أن ينكشف المسكوت عنه في الفصلين الثالث والرابع؛ إذ يظهر أن كل ما قرأه القارئ في الفصلين الأول والثاني مجرد حلم طويل رآه يعقوب عليه السلام!

ومن المناسب في آخر البحث – بعد كل السمات التي قدّمت أنواع المسكوت عنه – أن نوضح الفرق بين مفهومنا للمسكوت عنه ومفاهيم المصطلحات الأخرى التي وردت في المقاربات الكثيرة التي عرضناها، وذلك لبيان أن مفهومنا للمسكوت عنه لا يمكن أن يعوضه أيٌّ من هذه المصطلحات:

١- لا يمكن أن يكون مصطلح "السياق الاقتضائي" الذي قدّمته أرمينكو بديلًا عن المسكوت عنه الذي قدّمه الباحث؛ لأن السياق الاقتضائي يقتصر على المسكوت عنه الذي يمكن أن يتوقعه المتلقي لأجل أنه اعتاد أن يسمع هذا المسكوت عنه في هذا المقام نفسه الذي لم يظهر فيه هذا المسكوت عنه. فالسياق الاقتضائي يُسْقِط من حساباته شرط الاستعانة بالملفوظ للتوصل إلى المسكوت عنه، ويسقط ما يمكن فهمه بالاستنتاج العقلي لوجود علاقة السبب بالمسبَّب، أو الكل بالجزء، أو الكلي بالجزئي، ويسقط أيضاً ما شذَّ عن العادة فحُذِف في سياق ليس من العادة حذفُه فيه، ولا يتحدث السياق الاقتضائي عما يمكن إضافته من ألفاظ ليست مكمِّلة لما حُذِف من الملفوظ لكنها معينة على تقليص الاحتمالات.

٢- وأما الاستلزام أو المقتضى الذي شرحه بول جرايس فهو ينص على الاستعانة بالمصرح به في معرفة غير المصرح به؛ لأنه يتوصل إلى المسكوت عنه عبر السؤال عن سبب قول هذه العبارة في هذا السياق بعينه، وهو مفهوم يقتصر على المسكوت عنه الذي يمكن الجزم به لأن العرف يقتضيه، ولا يضع في حسبانه تعدد الاحتمالات التي لا يمكن الجزم بأحدها.

٣- أما رأي جاكندوف فذكر نوعين من أنواع المسكوت عنه، أولهما ما يحصل بالاستلزام على طريقة جرايس، والآخر الإضمار الذي يحصل بتقدير الكلمات المحذوفة فتكتمل البنية العميقة ويستقيم معها الكلام الملفوظ، وأما ما سمّاه مرجعاً فهو أن تذكر العَلَمَ وتريد شيئًا من لوازمه التي تستطيع تقديرها، فهو في النهاية يتردد بين الاستلزام والإضمار، وكذلك القصر الجِهَوِيّ حين يكون مسكوتًا عنه فإنه يُعْرَف بالاستلزام أو الإضمار، كلاهما –أي الاستلزام والإضمار– لا يحققان أنواعاً أخرى من المسكوت عنه مثل مفهوم المخالفة عند الأصوليين، ومفهوم التعاند أو التناقض الذي أضفناه، ولا المسكوت عنه المفهوم بالسياق الاقتضائي.

٤- كذلك مصطلح "معنى المعنى" عند عبدالقاهر الجرجاني لا يغني عن المسكوت عنه؛ لأن معنى

المعنى هو معنى ثانٍ ناشئ عن معنى ظاهر في أساليب التشبيه والاستعارة والكناية، فإذا لم يُبْنَ على حذف بعض العلامات، بل اقتصر على رتابة معهودة تقوم على فهم المتلقي للمجاز الذي تدل عليه العلامات المذكورة؛ فإنه من وجهة نظرنا مفهوم سلفًا عند المتلقي وليس مسكوتًا عنه.

٥- ومن فضول القول أن مفهوم المخالفة عند الأصوليين لا يساوي مفهوم المسكوت عنه الذي نقصده، ذلك لأنه معنى يُتَوصَّل إليه بقلب الإثبات إلى نفي أو قلب النفي إلى إثبات، وهذا القلب قد يُولِّد معنى لم يكن مقصوداً في السياق وإن كان هو معنى معقولًا أو مقبولًا عند الأصوليين بضوابط حدّدوها، وقد اشترطنا في المسكوت عنه أن القصدية المتعلقة بالمؤوِّل التي تعني أنه ليس حرّاً في تحوير مراد المتكلم بل عليه أن يتوصل إلى المسكوت عنه بتأويل يناسب سياق الحالة.

نتائج البحث.

١) استفاد البحث من مقاربات فلسفية ولسانية وتأويلية وتداولية، ويخال أنه استطاع أن يضع مفهومًا واضحًا للمسكوت عنه عبر تقديم تسع سمات يتصف بها؛ مع التمثيل لكل سمة بمثال تطبيقي من رواية "أنا يوسف".

٢) ناقش الباحث كل المصطلحات التي تتداخل مع مفهوم المسكوت، ومثّل لهذه المصطلحات لكي يوضّح أنه لا يمكن أن يكون أحدُها مغنيًا عن مفهوم المسكوت عنه بالسمات التسع التي قدّمها له.

٣) أسهم التطبيق على رواية "أنا يوسف" بالتنبه لزوايا من النظر لم تُطْرَق من قبل في مناقشة مفهوم المسكوت عنه ومفاهيم المصطلحات القريبة من مفهومه.

مدونة الدراسة:

- العتوم، أيمن، **أنا يوسف**، الطبعة الأولى، دار المعرفة، القاهرة، ٢٠١٩م.

المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- أرمينكو، فرانسواز، **المقاربة التداولية**، د.ط، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء الوطني، مكتبة الأسد، الرباط، ١٩٨٦م.
- الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن، **الكوكب الدري في كيفية تخريج الفروع الفقهية على المسائل**

النحوية، الطبعة الثانية، تحقيق: عبدالرزاق السعدي، دار الأنبار، بغداد؛ دار سعد الدين، دمشق، ٢٠١١.

- إيكو، أمبرتو، **التأويل بين السيميائية والتفكيكية**، الطبعة الثانية، ترجمة: سعيد بن كراد، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ٢٠٠٤.
- التلمساني، محمد بن أحمد بن علي، **مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول**، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد بن كامل المسندي، دار الجيل الجديد، الطائف، ٢٠١١.
- جاكندوف، راي، **دليل ميسر إلى الفكر والمعنى**، الطبعة الأولى، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، دار كنوز المعرفة، عمّان، ٢٠١٩.
- كوبلي: بول، **دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات**، الطبعة الأولى، ترجمة: هبة شندب، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٦.
- الجرجاني، عبدالقاهر، **دلائل الإعجاز**، الطبعة الثالثة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة؛ دار المدني، جدة، ١٩٩٢.
- السالمي، عبدالله بن حميد، **جوهر النظام في علمَي الأديان والأحكام**، الطبعة الثانية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عُمان،: ٢٠١٨.
- طرفة بن العبد، **الديوان مع شرح الأعلم الشنتمري**، الطبعة الثانية، تحقيق: دُرّية الخطيب؛ لطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،: ٢٠٠٠.
- العزاوي، أبو بكر، **اللغة والحجاج**، الطبعة الأولى، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ٢٠٠٦.
- القاضي، محمد وآخرون، **معجم السرديات**، الطبعة الأولى، دار محمد علي، تونس، ١: ٢٠١٠.
- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، **الكليات**، الطبعة الثانية، تحقيق: عدنان درويش، وغيره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م.
- الكندي، خالد بن سليمان بن مهنا، **السبر.. أورجانون العلوم الجديد**، الطبعة الأولى، بيت الغشام، مسقط، ٢٠٢٠.
- الكندي، محمود بن يحيى، "**المسكوت عنه في الخطاب دراسة في ضوء المناهج التأويلية**" (رسالة دكتوراة)، جامعة السلطان قابوس، مسقط، ٢٠١٥.
- كوبلي: بول، **دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات**، الطبعة الأولى، ترجمة: هبة شندب، مركز

دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٦.

- ماري، كلود لوم، **علم المصطلح مبادئ وتقنيات**، الطبعة الأولى، ترجمة: ريما بركة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٤.
- موشلر، جاك؛ ريبول، آن، القاموس الموسوعي للتداولية، د.ط، ترجمة عزالدين مجدوب وآخرين، المركز الوطني للترجمة، تونس، دار سيناترا، ٢٠١٠.
- يوسف، أحمد، **النظرية السيميائية من العلامة إلى الخطاب**، الطبعة الأولى، جامعة الملك سعود، ٢٠١٨.

المراجع الأجنبية:

- Grice, Paul, ***Studies in the way of words***, Harvard University press, USA, 1989.
- Morris, Charles W., ***Foundations of the theory of signs, International Encyclopedia of Unified Science***, The University of Chicago Press, (volume 1 number 2), 1934.
- Peirce, Charles Sanders, during "the dictionary of Piers' terms" an electronic dictionary:
  - a- ***Letters to Lady welby***, 1908.
  - b- ***Letters to Paul Carus***, 1910-08-23.
  - c- ***Letters to William James***, 1909.
  - d- ***On the system of existential graphs considered as ınstrument for the investigation of logic***, 1906.
  - e- ***Prolegomena to an apology for pragmaticism***, 1906.
  - f- ***The basis of pragmaticism***, 1905.

Untold Problems in Literary Discourse, The Novel "I am Youssef" as a Model

Khaled Al-Kendi[(1)]

Received: 16/8/2020 Accepted: 14/2/2021

Abstract

The term "*the unsaid*" is problematic in terms of its conception. The debate is still in its conception among philosophers, linguists, Semites, hermeneutist, cognitive scientists and fundamentalists in both ancient and modern studies. This research presents multiple approaches of multiple sciences and theories that have endeavored to define the concept of *the unsaid* by using different analytical tools. The study also seeks to iron out clear features of the concept of *the unsaid* while applying these features to examples of *the unsaid* in Ayman al-Atom's "I am Joseph". The significance of the application derives from proving the power and the ability of these features to identify *the unsaid* extracted from the text, and the stating the details and facets that we think being absent in the concept of *the unsaid* in the old and modern approaches.

Keywords: The Unsaid, I'm Josef, Old Studies, Modern Studies.

(1) Sultan Qaboos University, Oman.